الكنفوشية

وغيرها من أديان بلاد الصين

يختلف شعب الصين اختلافاً بيناً عن شعب الهند. فالهندي يمتاز بالانغماس في الأشياء الروحية، والإيقان في طبيعة العالم الزائلة المتقلبة. والتفكير العميق في الله. أما الصيني فبحسب طبيعته لا يهتم إلا قليلاً في هذه الشئون. وفي بلاد الصين يقطن شعب بقي مدى الأجيال في عزلة عن العالم، من فجر التاريخ إلى هذا العصر الحديث، وكان لهذه العزلة أثرها في تكوين أخلاق قومية بارزة وشعب ذي طبع عملي قليل المبالاة، فخور بتاريخه الاجتماعي والقومي ونظمه الخاصة. وقد كانت الصين في فنون الحضارة في مقدمة أمم العالم. والآن، وقد شهدت مؤخراً أثار علوم الغرب وثقافته بعد أن تخطت حدودها القديمة، فإنها تدأب بعزم متوثب وهمة فتية في اقتباس تلك القوة والمؤثرات التي اعتز بها الغرب. والذين يعيشون من الأجانب في ربوع تلك البلاد من مرسلين وموظفين إداريين وتجار يعجبون أيما إعجاب بما يرونه من مقدرة ومتانة أخلاق ذلك الشعب العظيم. ولا يقل إعجابهم هذا بسبب ما يشهدون من الفوضى والاضطراب اللذين أعاقا تقدم البلاد في اكتمال حقها من الديمقراطية السياسية.

الدين في بلاد الصين

ما دين الصين؟ ليست الإجابة على هذا السؤال هينة. ففي تلك البلاد أديان ثلاثة الكنفوشية والبوذية والتاوزمية. وليس مستطاعاً أن نقول أن بعض أهليها كنفوشيون والبعض الآخر بوذيون وغيرهم تاوزميون، كما نقول مثلاً أن سكان الهند بعضهم هندوسيون وبعضهم مسلمون، ذلك لأن الصيني قد يكون كنفوشياً وبوذياً وتاوزمياً في وقت واحد! يضاف إلى هذا أن الكنقوشية هي في الحقيقة اسم على نظام ديني قبل أن يظهر كنفوشيوس في الوجود بأجيال كثيرة. وليس للتاوزمية علاقة بالفلسفة التي نادى بها مؤسسها. والطريقة الممكنة التي نختطها الآن هي أن نصف كلاً من هذه الأديان وصفاً موجزاً، ثم نستجمع العناصر الأصلية في الآراء الدينية العملية التي يعتنقها الصيني العادي.

كنفوشيوس

هو مفتاح الدين الصيني. والواقع أنه لم يبتكر الكثير مما يُنسب إليه، وهو ليس قوة دينية شخصية. وإنما قد تمثلت في حياته وكتاباته وجهة نظر الصينية العادية في الحياة والدين. كنفوشيوس هو المثال الذي يحتذيه الرجل الصيني في أسمى أوضاعه. وله في نفوس القوم مكانة التوقير والاحترام ويتخذونه نموذجهم الكامل.

ولقد ٥٥١ق.م. وكان أبوه ضابطاً حربياً ممتازاً من سلالة عريقة

توفي ولما يبلغ ولده الثالثة من العمر، وخلف أسرته في فقر. وقد أنصرف الغلام كنفوشيوس منذ حداثته إلى الدرس والبحث، وخصوصاً درس آداب القدماء. ولما بلغ أشده عُين في وظيفة حكومية وأخذ يتقلب في المناصب بكفاية نادرة. وكان في خلال تلك السنوات يفكر تفكيراً عميقاً في أحوال بلاده، ويكون فلسفته الاجتماعية والسياسية. وفي نهاية الأمر هجر وظيفته الحكومية وانقطع إلى وظيفة التعليم. فأقبل نفر من الشباب من كل رقاع وطنه وجلسوا عند قدميه لينهلوا من مُعين حكمته. ولم يلبث طويلاً حتى ذاع صيته وعلا شأنه. وكان تلاميذه من العلماء المبرزين ونظروا إلى كنفوشيوس نظرة إكبار واحترام تكاد تفوق عبادة الأبطال الأفذاذ. وفي هذا وحده دليل على علو كعبه في التعليم والحكمة. وبلغ صيته مسمع الملك والحاكم في "شو" فدعاه إلى مجلسه فلبى دعوته مغبوطاً لما كان للأسرة المالكة من الكرامة والحب في أعين الشعب. ويقال أنه عند زيارته لعاصمة ملكه التقى بالفيلسوف "لاوتز"، فنهره هذا على اعتداده بنفسه ودعواه أن في طوقه إصلاح العالم بتعاليمه. وبعد أن قضى سنوات في تعليم تلاميذه، والدرس والبحث، وتأليف أسفار في الآداب القومية القديمة، عينه أحد النبلاء ويدعى "لو" في وظيفة رئيس القضاة بالمدينة. ثم انتقل منها إلى رئيس الوزراء، على أن يباح له تنفيذ آراءه في مقاطعة لو. ويقول تلاميذه أنه أصاب في ذلك فوزاً مبيناً، "فالجرائم اختفت.

وكان الشيء إذا سقط في الطريق لا يلتقطه أحد. وصنعت صناديق الموت في ثخانة عادية. وبطل تمييز القبور بإقامة المتاريس عليها. وحدد أسعار واحدة في الأسواق". ولكن منافسيه أوقعوا بينه وبين الحاكم وراحوا يتزلفون إلى هذا الحاكم بتقديم الهدايا من نساء جميلات وعمائر ضخة، فحولوا عقله وفكره عن الأخذ بنصائح كنفوشيوس الحكيم، فاضطر هذا إلى اعتزال وظيفته. ولم يوضع قط فيما بعد في موضع القوة والنفوذ. ومما يذكر له بالفخر أنه لم يسع إلى ذلك يوماً ولم يحد قيد أنملة عما اعتقده حقاً ليرضي الشعور العام، فكرس بقية حياته في تعليم تلاميذه ودراسته الآداب القديمة التي أكمل أسفارها قبيل أواخر حياته، وخلفها تراثاً مذخوراً لبلاده. وتوفى سنة ٤٧٨ق.م.

عبادة شنغتاي

وقبل الخوض في نظم كنفوشيوس لا ندحة لنا عن الرجوع أولاً إلى بدين بلاد الصين قبل عصره: كان دينهم قائماً على ثلاثة أوضاع: عبادة شنغتاي الإله الأسمى، وعبادة الأسلاف، وعبادة الأرواح. ففي عبادة "شنغتاي" نرى مُثلاً روحية سامية. وإلى القارئ بعض العبارات المقتبسة عن الصلوات التي كانوا يرفعونها إلى "شنغتاي" ربهم في فصل الصيف وفصل الشتاء، حين كان يتقدم إليه الإمبراطور كرئيس كهنة نيابة عن الشعب:

"إليك أيها الصانع العظيم يتجه فكري.. وأنا عبدك لست إلا

قصبة مرضوضة ونبتة هزيلة. قلبي قلب نملة حقيرة ومع ذلك فقد نلت لديك شرفاً وحظوة إذ جعلتني حاكماً لهذه الإمبراطورية. وها أنا اعترف بجهلي وعمى قلبي. وأخشى أن أكون غير أهل لهذه النعم الوافرة. فهبني أن أراعي في وقار الشرائع والأحكام، باذلاً جهدي، على الرغم من صغر شأني، لأن أقوم بواجبي بولاء وإخلاص. وعن بعد أتطلع إلى مقامك السماوي، فتعال في مركبتك الفاخرة إلى هذا المذبح. وها أنا خادمك أعفر وجهي في التراب متوقعاً جزيل نعمتك... لترضى بأن تقبل تقدماتنا، وترمقنا بعينيك حين نعبدك، ياذا الصلاح غير المتناهي".

وهذا الضرب من العبادة يرجع تاريخها إلى العصور الأولى في التاريخ الصيني. فمنذ فجر التاريخ كان وراء جميع الممارسات والإجراءات الدينية التي مارسها الصينيون، تلك العقيدة العظمى عن إله سام عظيم، عقيدة أحيطت في بعض الأحايين بسجف من الغموض والإبهام، ولم تظهر ثمارها في الحياة القومية ولكنها لم تبرح قط عن الأذهان. ويطلق على "شنغتاي" هذا (أو الإله المتعالي) في مصطلحات الآداب القديمة لقب "تيان" أو السماء. وهذا هو اللقب الذي شغف به كنفوشيوس نفسه، وجرى على التحدث به كثيراً. وخليق بنا أن نغير التفاتاً إلى طريقة الخطاب التي جرى عليها كنفوشيوس لإله تنقصه عناصر الشخصية. ولعل نفوذه هو صاحب

الفضل في بقاء فكرة الإله العلي المتسامي مجرداً عن الشخصية.

وكان للإمبراطور وحده حق عبادة شنغتاي –نائباً عن شعبه– فأدى هذا أيضاً بطبيعة الحال إلى إبعاد فكرة الإلهية السامية عن محيط العبادة العملية.

عبادة الأرواح

لم تغب عبادة الأرواح قط عن بلاد الصين ولم تنفصل أبداً عن أسمى ما فيها من تعبد. فإلى جانب عبادة الإمبراطور للإله شنغتاي، ترى لوحات تمثل الإمبراطرة السابقة، ولوحات غيرها تمثل الشمس والقمر والنجوم والغيوم والأمطار والرياح والرعود، موضوعة إلى جانب لوحة الإله العظيم وفي مقام منخفض عنها. وإن في قبول آلهة أخرى على هذا النحو، ولو كانت خاضعة للإله الأسمى وأقل منه شأناً، لانحداراً إلى الوثنية. والواقع أن الكنفوشية منذ أن توفى زعيمها مالت إلى ضروب شتى من الوثنية، ولو أنها في الظاهر وبالاسم فقط تعيب الوثنية وتنعيها. وإلى جانب الأرواح التي ذكرنا ظهر عدد غفير من الآلهة ذكوراً وإناثاً ومجموعة أخرى من مبتكرات وأفانين عامة الشعب.

عبادة الأسلاف

وأهم من عبادة الأرواح عبادة الأسلاف. يقول كثيرون أن هذا

هو الدين الحقيقي لشعب الصين. ويرجع تاريخه إلى العصور الخوالي، ومازال شائعاً مألوفاً حتى هذا العصر. وليس يحرص الصيني على شيء حرصه على هذه العبادة، فأنت قد يُباح لك أن توجه الملام إلى أي شيء في الصين. أما أن تمس عبادة الأسلاف بسوء، فهذا ما لا يرضاه الصيني ويصدك عنه في جفاء. والأرجح أن هذه العبادة بدأت أولاً ضرباً من ضروب التكريم للميت بعد الوفاة، ثم استحالت إلى عبادة الأبطال الحكماء من رجال الشعب. وأخذت العادة تنتشر بين القبائل والأُسر تغذوها روابط الأسرة في بلاد الصين، وهي قوية بطبيعتها في تلك البلاد، حتى أصبح كل الأسلاف موضع التوقير والعبادة من الجميع على السواء.

واللوحة المستعملة في عبادة الأسلاف هي عادة "لوحة صغيرة من الخشب يبلغ علوها ثماني بوصات وعرضها بعض بوصات تنقش على وجهها اسم الشخص الذي تمثله". وتحفظ هذه اللوحة في دار الأسرة مدى حياة جيل أو اثنين من أجيال الأحياء عقب انتقال المتوفي، ثم تنقل بعد ذلك إلى هيكل أسلاف القبيلة أو الأسرة. ومن حين إلى آخر تقدم إلى هذه اللوحة التقدمات، وخصوصاً في عيد ميلاد المتوفي أو ذكرى موته من كل سنة. ويقول الجيل النابت في معرض الحديث عن المتوفين: "آباءنا وأمهاتنا" أو "أجدادنا وجداتنا". ولهذا النظام أثر بارز في تقوية نفوذ الأسرة أو القبيلة على الفرد بحيث يعسر عليه جداً

الخروج على التقاليد والعادات المرعية. وأنه ليصعب على المرء أن يدرك المدى الذي يذهب إليه الصيني في عبادة أرواح أسلافه وما تنطوي عليه تلك العبادة من عطف وولاء. وفي أغلب الأحيان تمتزج هذه العبادة بكثير من العطف والحب الخالص للمتوفين، وفي أحيان يخالطها الخوف مما تفعله تلك الأرواح لو لم يعبدها اللاحقون، وفي أحيان أخرى ليست إلا مجرد طقوس وممارسات وضعية جرى عليها العرف والعادة.

هذه هي الخيوط الثلاثة التي يتكون منها نسيج الدين في بلاد الصين: عبادة شنغتاي، وعبادة الأسلاف، وعبادة الأرواح.

العلاقات الخمس

يُقال أن كلمة واحدة –يشار إليها في اللغة الصينية بحرف واحد– هي التي تلخص كل تعاليم كنفوشيوس، وهي لفظة "التبادل"، إذ يقول أن جوهر الحياة الصالحة، للفرد وللأمة، يقوم على حسن أداء الفرد لواجبه ورعايته للروابط التي تربط الناس بعضهم ببعض. وعندهم علاقات رئيسية خمس: علاقة الأمير بالرعية، وعلاقة الأب بالابن، وعلاقة الأخ الأكبر بأخيه الأصغر، وعلاقة الزوج بزوجه، وعلاقة الصديق بصديقه. فإن روعيت كل هذه العلاقات حسُن حال الدولة.

التقوى البنوية

على أنهم يعلقون أهمية كبرى على الرابطة البنوية، وهي في بلاد الصين أشد القوى الأدبية، فإن الرجل قد يذبح أبنه ولا يُعتبر في فعلته إلا متطرفاً في استخدام الحقوق الأبوية. أما إذ قتل الابن أباه، فهذه جريمة فظيعة يُعاقب عليها القانون بأقصى صنوف التعذيب. ويقال بالإجماع أن التشدد في رعاية هذه الرابطة كان لخير البلاد، إنما هذه الفضيلة في نظرنا ذات ناحية واحدة، وليس ما يقابلها في واجبات الآباء نحو أبنائهم. وقد يفرطون في رعاية هذه الحقوق إفراطاً سخيفاً، مثال ذلك ما رُوي عن أحدهم من أنه "كان يخشى أن يدرك أبواه حقيقة تقدمه في الأيام وبلوغه سن السبعين فيرهبا شيخوخته، لذلك كان يرتدي ثياب الأطفال، ويطفر أمام والديه كصبي صغير".

الدولة

وقد دارت تعاليم كنفوشيوس الأدبية في أساسها حول الدولة وعلاقة أبنائها بها، والصفات التي ينبغي أن تتوافر في مليكها وحاكمها، فإذا صلح حال الإمبراطور صلح حال الدولة والشعب. ولقد استمد مبادئه الأدبية ومُوحياته من تاريخ السلف. وأراد أن يوطد حياة الأمة على تلك المبادئ التي أثبت التاريخ الماضي صلاحيتها. أما عن ضمير الفرد وعلاقته بالله، فلم يقل إلا القليل.

وكان اهتمام كنفوشيوس متجهاً في أصوله إلى علاقة الإنسان

بالإنسان. أما عن العلاقة بين الله والإنسان فالظاهر أنه لم يعبأ بها كثيراً. وسلم بعبادة الإله "شنغتاي" القديمة، وكذا عبادة الأسلاف، وأباح شيئاً من عبادة الأرواح لغرض الثقافة الرسمية العامة. ولكن عقله الكبير المفكر أمتهن هذه العبادة جملة واحدة، وخيل إليه أن عبادة القوى غير المنظورة من الأمور غير الضرورية إذا قيست بمهام الإنسان الأخرى. ومن أقواله: "لم نقدر حتى الآن أن نؤدي واجباتنا نحو الإنسان، فكيف نؤديها نحو الأرواح؟". أما عن الحياة بعد الموت فأبى أن يصرح بشيء. والحق أننا مسوقون إلى الإعجاب بإخلاص ذلك الرجل ونزاهة عقله، لأنه يأبى الخوض في أمور لا يدريها. وبينا نأسف لأن آدابه "لم تتأثر بالعاطفة"، فإنا نقر أن موقفه "اللاأأدري" كان بمثابة احتجاج ضد عبادة الأرواح الفاسدة، ولعب دوراً نافعاً في تاريخ أمته الديني.

تعاليمه الأدبية

ولقد بلغ كنفوشيوس في تعاليمه مستوى أخلاقياً رفيعاً كان له أبلغ الأثر في حياة بلاد الصين وإلى القارئ بعض أقواله:

"أليس رجلاً فاضلاً ذاك الذي لا يشعر بانزعاج حين يغض الناس الطرف عنه؟".

"اجعلوا الأمانة والإخلاص من المبادئ الأولى".

"إن الرجل الفاضل في كل شيء يحسب البر من الضرورات".

وقد وضع القاعدة الذهبية في صيغة السلب.

"لا تفعل بالآخرين ما لا تريد أن يُفعل بك".

وحين سمع أن "لاوتز" قال: "جازوا الشر بالخير" –حار في أمره وقال: "جازوا الشر بالخير! إذاً بماذا نجازي الخير؟ جازوا الأذى بالعدل، والخير بالخير". وربما كان هذا نقصاً أدبياً في نظامه. فإن فضائله هي فضائل الإنسان الطبيعي في أحسن أوضاعه. أما أن تجازي الشر بالخير، وهو شأن الله معنا، فظنه مقياساً أدبياً فوق طاقته.

ثم أن أخلاقياته ضعيفة أيضاً من ناحية الخطية البشرية. فهو يؤمن أن طبيعة الإنسان في أصلها صالحة، ولو أتبع موحياتها قادته إلى الصلاح، أما الخطأ فيعزوه إلى الجهل. وهو لم يدرك صراع بولس مع الجسد الذي تمثل في صرخات المجربين من البشر مدى الأجيال: "الذي لا أريده هذا أفعله". والظاهر أن زميله الحكيم الصيني الآخر "لاوتز" تعمق إلى أبعد من هذا في الحياة البشرية، ولو أنه لم يكن ذا أثر كبير في بلاده.

أهمية كتب الأدب القديمة

لقد أفرز كنفوشيوس شطراً كبيراً من حياته في تنقيح كتب الأدب الصينية القديمة "الكلاسيكيات". وبعد موته صنفت المؤلفات عنه

وعن تعاليمه. ولي هيناً علينا أن نقدر خطورة هذه الكتب في تاريخ الصين. فإن قلنا أنها كتب الكنفوشية المقدسة كان قولنا حقاً، ولكنه بعض الحق ليس إلا.

ويحول ضيق المقام هنا دون التبسط في وصف التعليم الصيني على أنه الشعب الصيني يبزُّ كل شعوب الأرض في شعوره بضرورة التعليم، وفي تكريمه العلم والعلماء. والعامة لا تعرف كثيراً عن الكتب، ولكن تعرف منها أقوالاً مأثورة جرت مجرى الأمثال، ويعلمون أنه لو أتيح لولد أن ينبغ في علوم الأدب القديمة، فإن كل المناصب العليا في البلاد قد تسعى إليه. وقد أدت الإصلاحات التعليمية الحديثة إلى تغيير الموقف بالنسبة لكتب الأدب القديمة، ولكنها لم تبدل موقف الصيني حيال التعلم.

مكانة المرأة

وأما مكانة المرأة في الصين فقد كانت دائماً منحطة وضيعة. وفي قصيدة شعرية قديمة يُروى عن بطل وُلد له بنون فاضطجعوا على وسائد ناعمة... ووُلد له بنات فنمن على الأرض الوعرة! وخلقت المرأة في عرفهم، وهي من الجنس الأدنى، للأعمال الحقيرة الدنيئة. وما عادة حزم الأرجل بأحذية من حديد منذ الصغر –التي أخذت تزول الآن بفضل المؤثرات الغربية– إلا أثر من آثار امتهانهم للمرأة. وكنفوشيوس لم يعمل شيئاً لرفع مستوى الصيني، لأنه في نواح كثيرة

آثر البقاء في المستوى العادي المألوف.

التاوزمية

قلنا أن الكنفوشية هي أكثر الأديان ذيوعاً في بلاد الصين. وهناك دين آخر يدعى "التاوزمية" نسبة إلى مؤسسه "لاوتز". ويذكرنا هذا ببوذا من بعض الوجوه. فقد وُلد حوالي سنة ٦٠٤ق.م. فكأنه كان معاصراً لكنفوشيوس وأكبر منه سناً. كان "لاوتز" فيلسوفاً، بينما كان "كنفوشيوس" سياسياً ومصلحاً أدبياً. وأودع نظامه وتعاليمه في سفر خاص.

وكان في دين "لاوتز" هذا فكرة أساسية عبر عنها بكلمة (Tao) وهي كلمة ذهب العلماء مذاهب شتى في ترجمتها. وإنا لنذكر أن الفكر اليوناني قبل عصر المسيح نشط للتعبير عن المبدأ المسيطر في الكون فقال بعضهم أنه "العقل"، وذهب آخرون إلى أنه "الطبيعة". ثم نشط اليهود أيضاً في ذلك العصر للتعبير عن مظهر الله في التاريخ فقالوا هو "الحكمة"، بينما اصطلح اليونان بكلمة (Logos) للإفصاح عن المبدأ النهائي الكلي لكل الأشياء. وقد شغف "لاوتز" الذي عاش قبل هؤلاء أولئك بنفس هذا التفكير النظري حول المبدأ المسيطر في الكون الذي أطلق عليه (Tao).

ولقد ترجم العلماء هذه الكلمة الصينية فقالوا: العقل، المبدأ، الطريق، الطبيعة –وهي تشبه "الحكمة Wisdom" العبرانية

و"Logos" اليونانية، وإن اختلفت عنهما. وهي تعبر عن المبدأ فيما وراء عالم الطبيعة، كما هو معلن في الطبيعة وفي الجنس البشري.

والظاهر أن المثل الأعلى في تعاليمه هو أن يسمح الإنسان للطبيعة أن تعمل في حياته كيفما تشاء، فلا يركن إلى جهاد إرادته بلا جدوى وكان "لاوتز" رجلاً بعيد النظر ثاقب الرأي، ويقال عنه أنه حين التقى بكنفوشيوس ألمح له إلى خطأ مبادئه الأساسية التي تزعم أن القانون كفيل بإصلاح الإنسان، وقال له في عبارة صينية جرت مجرى الأمثال أن الإنسان لا يفعل الصلاح لأن "أعماق قلبه لا يستقر فيها شيء من الصلاح". وكأنه يردد هنا ما جاء في الإنجيل يوحنا "ينبغي أن تولدوا ثانية". ومن تعاليمه أن يجازي الشر بالخير. وهذا عكس ما دعا إليه كنفوشيوس. ومع ذلك فإن "لاوتز" هذا لم يؤثر إلا أثراً ضئيلاً في بلاد الصين. وذلك لأن رسالته الوحيدة كانت أن يهجر الناس العالم، بينما أنصرف كنفوشيوس في دعواه إلى إصلاح المجتمع.

وليس للتاوزمية شيء من هذا المعنى في هذا العصر إلا في عقول نفر قليل من الكهنة والعلماء. ولم تعد اليوم إلا مزيجاً من الخرافات تدور حل قوى الطبيعة وتكريمها عند وضع أسس المنازل أو حفر القبور. واختلطت بها في سهولة مناجاة الأرواح وقراءة الكفوف والسحر والتعاويذ. ولعل إباء الكنفوشية وقطعتها كل علاقة بمثل هذه المظاهر، هو الذي حمل هذه الخرافات الوثنية على الالتجاء إلى الديانة

التاوزمية. ولقد تسللت إليها الخرافات بسبب ما أنطوت عليه من أسرار غامضة ومعان ملتبسة. وربما كان في هذا الغموض قوتها التي تفتقر إليها الكنفوشية، ولكنها كانت أيضاً سبب ضعفها. وهي بالأسف نقطة الضعف في بلاد الصين هذا العصر.

البوذية الصينية

وفدت البوذية إلى بلاد الصين حوالي بدء العصر المسيحي على يد المرسلين الهنود وبفضل الحجاج الصينيين الذين ذهبوا إلى الهند وعادوا إليها حاملين الرسالة البوذية. فلما استوطنت هناك طرأت عليها بعض التغييرات. فبوذية الهند لا إله لها. ولكنها حين انتقلت إلى الصين مالت إلى الاعتقاد بفكرة كائن مطلق يتمثل في شخصيات مختلفة، بوذا واحد منها. وأشهر تلك الشخصيات في بلاد الصين من يدعونها "كوان ين" وهي عندهم إلهة الرحمة يرفعون إليها الابتهالات في المعابد البوذية.

ثم زالت فكرة "النرفانا" في البوذية الصينية وحلت محلها فكرة الفردوس المادية، وفيه تنعم النفس بالحديث مع الشخصيات الإلهية. والبوذي الصيني لا يفقه شيئاً من معنى "النرفانا" الهندية، ولكنه يعتقد أنه سيذهب بعد الموت إلى فردوس في الغرب.

والصلوات أو على الأقل الابتهالات ذائعة في البوذية الصينية مع أنه لا وجود لها في البوذية الهندية التي شرعها بوذا بنفسه، وفي

بعض رقاع الصين قد أدخلت عجلت الصلاة الآلية التي يستعملها أهالي التيبت.

ثم أن النظام المقدس الذي وضعه بوذا لجماعة الشحاذين الزاهدين قد استحال في بلاد الصين إلى جيش عرمرم من النساك والناسكات، معظمهم في أحط درجات الجهل والغباء.

فكأن البوذية عند انتقالها إلى بلاد الصين قد أمست مادية وابتعدت عن روح مؤسسها، ولكنها استمسكت بطقوس ورسوم جافة. ومع هذا كله فإنه من الخطأ أن نضعها مثلاً في مرتبة واحدة مع التاوزمية، ذلك لأنها فعلت كثيراً في إحياء فكرة الخلاص في بلاد الصين. وبينما عملت الكنفوشية لحمل الناس على الاكتفاء بفضائلهم الذاتية، فإن البوذية قد رسمت أمامهم صورة باهتة لفكرة الخلاص (ليس الخلاص من الخطية، بل الخلاص من العالم المتألم بسبب خطيته)، عن طريق تضحية اختيارية من جانب قوة أخرى. ويقول المرسلون المسيحيون أن التنصر البوذي يفهم حالاً فكرة الفداء المسيحية.

خلاصة الديانة الصبقية

والآن لنلخص ديانة الصينيين: منذ التاريخ القديم سادت فيها عبادة الإله "شنغتاي" وعبادة الأسلاف أيضاً. ثم جاء كنفوشيوس فأقام، بالأسفار المقدسة التي كتبها، وبتعاليمه وحياته الشخصية وأخلاقه، مجموعة من التقاليد مازالت باقية حتى اليوم. فقبل العبادة

القائمة في عصر ومزج فيها تعاليم أدبية اجتماعية اقترنت باسمه، ترمي كلها إلى سلام الأمة ورفاهيتها. وتضيف البوذية إلى هذا كله شيئاً كثيراً من السحر والشعوذة والخرافات ممتزجة بشيء من الدين الحقيقي: أما التاوزمية فهي –ما خلا الفلسفة التي لا يفقهها إلا نفر قليل من العلماء– وضع من أحط الأوضاع للسحر والسفسطة والمماحكة. وهذه الأديان الثلاثة مشتبكة مضفورة معاً وكلها رسمية، حتى البوذية والتاوزمية معترف بهما. ومن دلائل هذا الخلط الديني الغريب أنه على الرغم من الاعتراف الرسمي بالتاوزمية والبوذية. تجد الكنفوشية تذيع مرة كل أسبوعين في كل هيكل كنفوشي نداء تنعي في البوذية والتاوزمية حاسبة إياهما عبادة وثنية، وبعد هذا كله يصح القول أن الصيني هو في الوقت الواحد كنفوشي وبوذي، وتاوزمي.

ويستند التفكير الكنفوشي إلى التعليم، وإلى الحكومة الصالحة العادلة والعلاقة الاجتماعية المنظمة، لترقية النفس البشرية، وهو في هذا يجاري إلى حد كبير التفكير الغربي الحديث. وليس في الكتب الصينية شيء عن تقدير ضعف الإنسان الأدبي وما فيه من غريزة الخطأ، أو الاعتراف بحقيقة الإرادة الشريرة، مما تفرضه علينا فرضاً وجهة النظر العملية في الحياة. لذلك خلت من فكرة إمكان استمداد المعونة من إله، أو قوة للتجديد والإحياء من مصدر خارق للطبيعة.

على أنه يتضح لنا جلياً لدى إعمال الفكرة أن بقاء القيم

السامية البشرية يفتقر دائماً إلى مرساة تثبت في إله ما. أما وجهة النظر التي تذهب إلى أن الطبيعة البشرية صالحة بالضرورة وتستبعد الله كلية، فهذه أعجز من أن ترفع الإنسان فوق المستوى الطبيعي.

نور معرفة الله

هل للمسيحية رسالة إلى شعب الصين الذي ظل هوراً يتعسس طريقه بين آلهة كثيرة؟ –تقدم لذلك الشعب رسالة الله والواحد، الآب، المعلن في يسوع المسيح: ثم هي تهيئ له أيضاً مستوى أدبياً سامياً، أرفع من مستوى كنفوشيوس، وأرقى من مستوى بوذا، وأكثر في تأثيره العملي من الفيلسوف لاوتز– مستوى مشتقاً، لا من فقه الحكماء والفلاسفة، بل من صفات يسوع الذي تلائمت أقواله مع حياته. وحين يفشل البشر أمام سمو هذا المطلب، تجدي عليهم المسيحية خلاصاً لا نصحاً، وقوة من الله تعين على الحياة الصالحة. ثم تضع المرأة في مكانتها المكرمة اللائقة بها، وتلقي نوراً على الحياة بعد الموت. ومن الأسف أن الصين لم تنعم قط برجاء حي في الخلود، فإن البوذية والتاوزمية لم تعطيا إلا فكرة غامضة مبهمة عن الحياة المستقلة أما الكنفوشية فقد صمتت عندها ولم تنطق شيئاً، ولم أن عبادة الأسلاف تنطوي على شيء من المعنى في هذه العقيدة. ولكن المسألة كلها مضطربة غامضة. أما الرجاء المسيحي في الخلود فصاف رائق لا غموض ولا التواء فيه.

والآن، وقد أخذت أنوار الخرافات الفاسدة تتضاءل في تلك البلاد، فلا يجديها إلا النور الكامل الذي يشع من المسيح. أما الحقائق الأدبية الأخلاقية فلن يمكن أن تخلص أية أمة. ولهذا تنشط الديانة المسيحية في بلاد الصين لإنقاذها من العصور المظلمة والتقاليد البالية.